الشيخ إمام

١٩١٨ – ١٩٩٥

يعتبر الشيخ إمام واحداً من أكثر الذين دخلت أغانيهم السياسية الثورية والساخرة في وجدان الشعب المصري، وفي وجدان الشعوب العربية. وتحوّل مع الشاعر أحمد فؤاد نجم إلى ظاهرة في الغناء الشعبي وظاهرة في الأغنية السياسية النقدية. وصعد نجم هذا الثنائي في شكل خاص في أعقاب هزيمة يوليو في عام ١٩٦٧. ورغم أن الظروف إختلفت بعد عقدين على غياب الشيخ إمام فإنه لا يزال يحتل مكاناً عميقاً في وجدان الشعب المصري على وجه الخصوص. فالثورة التي إنفجرت في مطالع عام ٢٠١١ هي ذاتها التي كان صوت إمام مع شعر نجم يدعوان لها، وهما في ذهابهما إلى السجون وفي إيابهما منها.

ولد الشيخ إمام في عام ١٩١٨ في قرية قريبة من القاهرة تدعى "أبو التمرس". في الخامسة من عمره أدخله والده في "الكتّاب". في ذلك الكتّاب حفظ القرآن وأجاده. ويقول الشيخ إمام حول هذا الموضوع: "بعد أن حفظت القرآن وفهمته وجوّدته أخذت أكتشف منه كل يوم عالماً لا نهائياً من الموسيقى والألحان والشعر. وحين أقرأ القرآن أشعر أن علاقة ما تقوم بين الأرض والسماء وأنني أسهم فيها...". كان يوجد في قرية "أبو التمرس" في ذلك الحين فرع للجمعية الشرعية التي كان قد أسسها في مطالع القرن العشرين الشيخ محمود خطاب السبكي. وكان يعيش في رحابها عدد من المقرئين ورجال الدين الفقراء. يقول الشيخ إمام في حديث إلى الناقدة المصرية فريدة النقاش: "... كنت أقرأ القرآن وأعمل "كورس" للوعاظ الذين كانت ترسلهم الجمعية إلى الأفراح. كانوا يذهبون ليحكوا قصة الرسول ورفاقه بشكل غنائي. وعملت منشداً مع عدد كبير منهم لأنهم رأوا أن صوتي يصلح لذلك. وإستأذنوا والدي لكي أذهب معهم إلى القاهرة من أجل تهذيب صوتي. وقد قضيت في تلك الجمعية خمس سنوات تعلمت فيها الكثير. كان الشيخ السبكي رجلاً كبير القلب واسع العلم رغم أنه كان أمّياً حتى الأربعين من عمره حين درس المنطق وذهب إلى الأزهر ليحصل على الشهادة... كان الرجل عطوفاً إلى حد أشعرني موته باليتم الأبدي...".

ويتابع الشيخ إمام قائلاً بأنه لم يبق في تلك الجمعية، إذ فصل منها وطرد طرداً من دون إستئناف. ويقول إن السبب في ذلك الفصل من الجمعية جاء "... لأنني ضبطت متلبساً بسماع القرآن في الراديو. وكنت أجلس في المقهى. فبعد موت الشيخ السبكي تولى إدارة الجمعية إبنه ومجموعة من العلماء المتزمتين الذين كانوا يرون أن قراءة القرآن في الاذاعة إمتهان لكلمة الله، وأن سامع القرآن ينبغي ألاّ يتسلى بسماعه. أصبحت حينئذٍ بلا مأوى ولا مورد رزق. وحين طلبت الصفح والغفران لم يستمع إليّ أحد. فكنت أمضي النهار متجولاً في شوارع الغورية والأزهر والحسين وأقضي الليل في جامع الأزهر. وبعد تشرد دام فترة من الزمن أقمت في حجرة صغيرة في الغورية. وكنت أقرأ القرآن في البيوت والدكاكين مقابل الطعام أو قروش قليلة".

يتابع الشيخ إمام في الحديث ذاته إلى فريدة النقاش قصة حياته الأولى وبدايات تعرفه إلى الموسيقيين والمغنين الرواد، فيقول: "... تعرفت على الشيخ زكريا أحمد وهو أحد الملحنين الكبار الذين حافظوا على تراث الموسيقى العربية من الاندثار. وإستمعت إليه طويلاً. وإستمعت إلى الشيخ محمود صبحي صديقه ورفيقه. وكان عدد كبير من الفنانين يعيش في "حوش قديم" والفحامين. وعندما كان الشيخ زكريا يضع لحناً لأم كلثوم كنت أحفظه وأؤديه. وفي تلك الفترة ذهبت كثيراً إلى الأفراح واحتفالات الختان هاوياً لا محترفاً. ولأنني لم أكن قد تعلمت العزف فقد كنت أصحب معي في تلك الحفلات عواداً وضارب رق. وفي إحدى الليالي وجدت رجلاً كفيفاً يعزف. وكنت من قبل أخشى حتى أن أسأل عن إمكانية ذلك. وكان ذلك إكتشافاً ملأني أملاً وثقة. ولازمت ذلك العوّاد الذي كان يدربني كل يوم على سلم الأنغام حتى أجدته. وكنت حينئذٍ في العشرين من عمري. وأخذت أعزف على العود وأنا ألبس العمّة. وهو الزي الذي يرتديه الفقهاء". ويتابع الشيخ إمام قائلاً: في عام ١٩٤٥ غنيت في ركن الأغاني الشعبية في الاذاعة.

وكان شرط المسؤولين حينئذٍ أن أخلع العمّة وألبس "بدلة". وقد كان... وظللت أغني دون أن أجرؤ على التلحين. وكنت أغني ألحان الشيخ زكريا أحمد وسيّد درويش، ولم يكن في حياتي حتى ذلك الحين حدث ذو دلالة بإستثناء أن أمي كانت تريد دائماً أن تزوجني، ولأنني كنت أهوى حساب الأوفاق والطبائع والنجوم وأمارسها أحياناً كعلم تبيّن لي أن هذه الزوجة لن تسعدني. ولكن أمي ككل الأمهات كانت تريد أن تفرح بي فتزوجت. ولم يستمر ذلك إلا شهراً واحداً إنفصلنا بعدها ولم أتزوج أبداً بعد ذلك"...

يتابع الشيخ إمام "... وإلتقيت بأحمد فؤاد نجم في سنة ١٩٦٢ وكان لقاؤنا بداية جديدة لي وله معاً... سألني عندما إلتقينا وبعد أن إستمع إليّ... لماذا لا تلحّن؟ فقلت مداريا خجلي من الفكرة، لأني لا أجد الكلمات. فقال لي على الفور: إسمع هذا النموذج وقدّم لي أغنية عاطفية لحّنتها على الفور. وحين بدأت في التلحين إكتشفت إلى أي حد يمكن لمقرئ القرآن الذي حفظه جيداً وأتقن لغته وأساليب تجويده أن يكون ملحناً... بل أن يكون سيّد الملحنين لو كان يستمتع بقدر من الموهبة، فالقرآن كنز لا ينتهي. هل تصدقين أن كوني كفيفاً قد أفادني كثيراً. أشعر أنني أستعيض عن العالم المرئي بعالم داخلي يزداد غنى ويتفجر موسيقى، من يدري لعلّني محظوظ... أنا بالفعل محظوظ لأنني لم إنضمّ إلى صفوف المزورين الذين يقبلون أي شيء ويلحنون أية كلمات مهما كان مستواها".

تقول فريدة النقاش أنها سمعت من أهل الحي الذي كان يسكن فيه الشيخ إمام بأنه كان يدرب سيّد مكاوي على العزف، وأنه هو الذي علّمه السلّم الموسيقي ودرّبه على الغناء. وهو الأمر الذي نفاه سيّد مكاوي. في حين أن الشيخ إمام قال لفريدة النقاش بأن ما رواه أهل الحي صحيح لكن تلك هي حال الدنيا.

من طرائف الثنائي إمام ونجم أن رفيقهما الثالث محمد علي قد تحوّل إلى رسّام بعد سن الأربعين وهو يرافق كلاً من الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم، وأن رفيقهما الرابع محمود اللبّان قد تحوّل إلى نحّات بعد أن سمع صوت الشيخ إمام وغنّى معه. كان محمد علي مكلفاً بالضرب على الرق خلال الغناء مرافقاً عود الشيخ إمام. وكان محمود اللبّان يغني مع محمد علي في شكل كورس يرافق الشيخ إمام عندما كانت الأغنية تقتضي ذلك. وكان يضمّ هؤلاء الأربعة من "صعاليك" الثورة ضد مظالم الحياة وضد القهر والطغيان وضد الفقر ومسبّبيه بيت صغير في حي السيّدة زينب لا أدري إذا كان هو ذاته الذي زرته يوم زرتهم في عام ١٩٧٤. وإذا كان لقاء إمام ونجم قد بدأ في عام ١٩٦٢ بعد خروج الشاعر من السجن فإن الظاهرة لم تأخذ طريقها إلى التبلور والرسوخ إلا ابتداءًا من مرحلة ما بعد هزيمة حزيران في عام ١٩٦٧ وما تلاها من أحداث. إذ كانت الهزيمة مصدر إلهام لكل من الفنانين، الأول في الشعر والثاني في التلحين والغناء. ويعتبر كل منهما أنه كان بحاجة إلى الآخر، وإنه كان يبحث عنه في الغيب، إلى أن جاءت الصدف ليلتقيا ويشكلا في إلتقائهما تلك الظاهرة الثقافية والشعبية المعبّرة عن ضمير الشعب المصري وعن تفجر الثورة في وجدانه وعن طموح فقرائه إلى التغيير، كما يقول نجم. والحقيقة فإن إلتقاء نجم مع إمام كان في مستوى الضرورة. كلاهما دخل الحياة في شكل مأساة، وكلاهما إستمر يعاني من تلك المأساة في حياته على إمتدادها، فقراً وتشرداً ودخولاً إلى السجون وخروجاً مؤقتاً منها. وكانت المطاردة من أهل النظام اللازمة المرافقة لكل منهما، منفردين ومجتمعين. ذلك أن نجم الذي ولد في عام ١٩٢٩ قد أصبح يتيماً في السادسة من عمره. وبوفاة والده أصبح مع والدته وإخوته فريسة لمطامع أعمامه الأغنياء. فعمل وهو في سن السادسة خادماً في منزل أحد أعمامه الذي مارس عليه الاضطهاد الوحشي إلى الحد الذي دفعه للهروب والتشرد وممارسة كل أنواع العمل التي تقيه مخاطر الموت جوعاً. فشاخت روحه مبكراً،

كما يقول في التعبير عن مأساة تلك البدايات لحياته. وهكذا تبرز العلاقة بين الاثنين في مأساة كل منهما، المأساة التي جمعتهما ووحّدت بينهما في العمل الفني والشعبي والثوري أعواماً طويلة قبل أن تنقطع ويتفرّق التوأمان إلى غير رجعة. وتبقى الظاهرة حية في وجدان الشعب المصري وفي وجدان أقسام واسعة من الجماهير العربية التي ما تزال تردد في كل المناسبات أغاني وأشعار إمام ونجم الخالدة.

غير أن أهم ما في ظاهرة هذا الثنائي الجميل أنها خرقت كل الحواجز لتصل إلى الجمهور الواسع. وكان الطلاب هم الأكثر تلقفاً لها وإستقواءاً بها في معاركهم الاجتماعية والوطنية. لكنها سرعان ما صارت ظاهرة جماهيرية في مصر عندما بدأت الأغاني تلامس بوضوح وبجرأة جميع القضايا ذات الصلة بالهموم اليومية لكل الناس. وكلما كانت تزداد الظاهرة اتساعاً ورسوخاً كانت قوى القمع تطارد صاحبيها بالترغيب وبالترهيب. لكن الفنانين الكبيرين ظلاّ كالطود الشامخ يرفضان الترغيب ويسخران من الترهيب. وكانا كلما دخلا السجن خرجا منه أكثر صلابة وأكثر وضوحاً في الرؤية وأكثر التصاقاً بالناس. وكانا يقتحمان كل مكان تتوفر لهما فيه القدرة على القول شعراً وغناءً. بل لقد كانا يسرقان الفرص هنا وهناك، بما في ذلك في أماكن العروض المسرحية، قبل أن يبدأ العرض. وكانا يلقيان الحماس الجماهيري، وكانا يتعرضان للإهانة والضرب عندما لا يفلحان في إجتناب ذلك. وكانا كلما تعرضا للنقد من بعض عتاة الثقافة القديمة ومن بعض عتاة الاعلاميين كان يتصدى للدفاع عنهما مثقفون تقدميون طليعيون ممن أصبحوا في مصر من كبار مثقفيها. وهم كثر.

كان حب مصر في عقلهما ووجدانهما. فأعطيا لبلدهما ولشعبهما كل ما يملكان من طاقة في الابداع وفي الكفاح وفي التضحية من دون حساب. لذلك تحوّلت ظاهرتهما إلى أسطورة.

إستطردت في الحديث عن العلاقة العضوية بين الثنائي إمام ونجم، لأن الظاهرة الفنية والشعبية تمثلت بالعلاقة بينهما لزمن طويل. لكن من الخطأ التوقف عند هذا الثنائي من دون أن نشير إلى أن لكل من إمام ونجم شخصية مستقلة عن الآخر. فلكل من الشخصيتين سماتها الخاصة التي لا يقلل من شأنها الابتعاد أو الاختلاف بين الثنائي في لحظات معيّنة. إذ كان كل منهما يمارس شخصيته كما هي بالاستقلال عن الآخر. ومن المعروف أن عدداً من شعراء مصر الكبار قد تعاونوا مع الشيخ إمام الذي لحن وغنى لهم أشعارهم. وكان بينهم زين العابدين فؤاد. كذلك كان الأمر بالنسبة لنجم الذي ظل يكتب الشعر إقتحاماً حيناً وإنكفاءاً حيناً آخر. وهي حالة تعبّر عن شخصية نجم بسماتها الخاصة. إلا أن الظاهرة الحقيقية ظلت في وجدان الشعب المصري خصوصاً والشعوب العربية عموماً تربط هذا الثنائي العبقري لأعوام طويلة. لذلك فإن إفتراقهما، أولاً بسبب الخلاف الذي نشب بينهما في مطالع ثمانينات القرن الماضي، ثم بسبب رحيل الشيخ إمام، قد ترك آثاره بين محبي هذا الثنائي الجميل.

تعرّفت إلى الشيخ إمام في عام ١٩٧٤ في القاهرة. وكان قد أصبح في ذلك الحين معروفاً مع الشاعر أحمد فؤاد نجم بصفتهما ثنائياً شعبياً ثورياً. كنت أعرف أحمد فؤاد نجم قبل ذلك التاريخ. إذ كنت إلتقيت به في القاهرة وفي بيروت. وكنت قرأت الكثير من أشعاره واقتنيت أول ديوانين شعريين له صدرا في بيروت في أول السبعينات.

كنت في صيف عام ١٩٧٤ أزور القاهرة مع زوجتي تلبية لدعوة من خالد محي الدين، الذي كان في ذلك الوقت يرأس حركة السلم المصرية. طلبت من صديقي أحمد فؤاد نجم أن يعرّفني إلى الشيخ إمام. فصحبني معه إلى مكان في حي السيّدة زينب لم أعد أذكر أكان ذلك المنزل منزل نجم أم منزل محمد علي صديق ورفيق الشيخ إمام، أم هو منزل الشيخ إمام بالذات. كان الشيخ إمام ومحمد علي ينتظرانني. وتمّ التعارف. ولم يكن التعارف صعباً. فالشيخ إمام

كان إنساناً بسيطاً ودمثاً. وإذ كان ضريراً منذ طفولته فقد ولّدت عنده هذه الحالة إحساساً عميقاً بالحاجة إلى العلاقة مع الآخرين والتآلف معهم بسهولة. كنت أحب أن أستمع إليه شخصياً وهو يغني بعد أن كنت قد إستمعت إلى أغانيه عبر الكاستات وفي الاذاعات. لكنه لم يشأ أن يغني في تلك الجلسة. فعرضت عليه المشاركة في الاحتفالات التي كان الحزب الشيوعي اللبناني يستعد لتنظيمها بمناسبة العيد الخمسين لتأسيسه. وكان قد دعا الحزب إلى ذلك الاحتفال فرقاً فنية عربية وعالمية، موسيقية وغنائية ومسرحية وفولكلورية. لم يكن الشيخ إمام يعرف الكثير عن لبنان. ولم يكن يعرف شيئاً عن ذلك الحزب وعن تاريخه وعن ذلك الاحتفال. فقدمت له صورة موجزة عما كان يريد أن يعرف. وتركته يفكّر في الأمر. وحين قرّر أن يسافر إلى لبنان منعته السلطات المصرية من السفر. فمثّل مصر في ذلك الاحتفال ثنائي "حب مصر" المغني والملحن عدلي فخري وصديقه ومؤلف أغانيه الشاعر سمير عبد الباقي. وبعد أيام قليلة من ذلك اللقاء فاجأني صديقي لطفي الخولي بتنظيم لقاء في منزله تكريماً لي دعا إليه عدداً من أصدقائي وأصدقائه من المثقفين المصريين. وكان نجم تلك السهرة الجميلة الشيخ إمام الذي ظلّ يغني من دون انقطاع حتى ساعة متأخرة من الليل. وهكذا رأيت الشيخ إمام وسمعته يغني لأول مرة من دون واسطة...

في عام ١٩٨٤ نظّم الحزب الشيوعي اللبناني احتفالات مشابهة لاحتفالات عام ١٩٧٤ في العيد الستين لتأسيسه. فوجّهنا الدعوة إلى كل من الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم للمشاركة في تلك الاحتفالات. جاء الشيخ إمام ولم يأت نجم. وحين أخبرت الشيخ إمام بأننا سندعو نجم أجاب بحزم: إذا أتى نجم سأنسحب أنا. قرّروا من تريدون: إمام أم نجم! فقلت له معتذراً وآسفاً: بل نريدك أنت يا شيخنا يا شيخ إمام. وصعدت في أول ظهور الشيخ إمام على منصة الاحتفالات لأقدّمه وأقدّم محمد علي ببعض الكلمات فلم أستطع أن أتحدث لأن الجمهور كان

متشوقاً لسماع الشيخ إمام من دون مقدمات. فقد كانت زيارته إلى بيروت في ذلك التاريخ هي زيارته الأولى إلى لبنان. غنّى الشيخ إمام في أروع ما يمكن أن يكون عليه الغناء. كان ساحراً. وصار ينتقل من مدينة إلى أخرى خلال تلك الاحتفالات، ومن منزل إلى آخر من منازل المثقفين والسياسيين اللبنانيين. وكانت أجمل تلك اللقاءات معه في منزل الوزير في ذلك الحين الدكتور عبد الرحمن اللبان، صديق الفنانين اللبنانيين. فقد خرج في تلك السهرة عن غنائه المعروف لينقل إلينا بصوته الجميل أغاني أساتذته سيّد درويش وسلامة حجازي وعبده الحامولي وزكريا أحمد وآخرين ممن أسسوا لأغنية الطرب العربية الحديثة منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين.

وبطلب من الشيخ إمام ومن زياد الرحباني اصطحبت الفنان المصري برفقة الناقد الموسيقي نزار مروة إلى منزل زياد الرحباني. كان اللقاء ممتعاً وغريباً في آن. كان الفنانان يرغبان في التعاون الفني بينهما. لكن كلا منهما كان يريد أن يلحق الاخر به. كان زياد يريد أن يغني الشيخ إمام الأغاني التي يلحنها ويكتبها هو. في حين كان يعتبر الشيخ إمام أنه ملحن ومغنٍ في آن، وأنه يحتاج إلى من يكتب له كلمات أغنياته. ولم يتّفقا. وذهبنا معاً لزيارة السيّدة فيروز التي كانت قد طلبت مني أن تتعرف إلى الشيخ إمام في الوقت عينه الذي تقدم فيه الشيخ مني بالطلب ذاته. وكان اللقاء جميلاً بحضورنا زياد ونزار وأنا. وجرى حديث متشعّب في الموسيقى والغناء تناول تجربة الشيخ إمام الخاصة وتجارب الرحابنة.

ثم إلتقيت بالشيخ إمام مرة ثالثة في باريس في أواخر الثمانينات. وكان ذلك هو لقائي الأخير معه قبل أن يغادر الحياة في مطلع التسعينات.

غاب الشيخ إمام لكن صوته الهادر بالغناء وبالثورة ما يزال حاضراً في الوجدان، ليس في مصر الثورة وحسب، بل في كل البلدان العربية التي يحاول أبطال الثورات فيها وسط الصعوبات الكبيرة تحقيق ما حلم به الشيخ إمام وغنّى له وحرص عليه على إمتداد حياته.